القدرة على القاء الرياضات والمواعظ فيبثّون كرسل المسيح في كل مدينة وبلدة وقرية مبشرين بانجيل السلام ومنذرين بكلمة الحق ومفتشين عن النعجة الضالة ليرجعوها الى حظيرة الحراف. فنسأل الله تعالى ان يزيد الرهبانية تقدماً في كمالها وقدوة وثباتاً في جهادها وان يوفق رؤساءها الى ما فيه مجده تعالى وخير الكنيسة والوطن

تذكار نابغة الطب الحكيم لانّاك (١٧٨١ــ١٨٢٦)

للاب عماتوبل رولان اليسوعي

في ١٣ آب من السنة المنصرمة احتفل عالم الطبّ بالتذكار المئوي لوفاة طبيب فرنساوي يعتبرهُ العلماء كنابغة العلوم الطبيّة لما نهجهُ من الطرائق الجديدة لتشخيص امراض باطنيّة كان الاطبّاء أيسوا من الوقوف على صحّتها لعدم وجود هم لآلة ترشدهم الى معرفتها. فبقي الطبّ الى زمانه قاصراً عاجزاً من هذا القبيل حتى توفّق هو الى كشف ذلك السرّ المكنون

والطبيب المذكور هو الحكيم لانّاك (Laënnec) استاذ الطبّ في جامعة باريس. فيسرّنا ان نروي شيئاً من مآثر هذا الرجل العظيم الذي لا تزال اكتشافاتهُ احسن دليل لمعالجة تلك الادواء الكامنة وفي نبذتنا هذه نصف الرجل ثم العالم ثم الكاثوليكي العامل

١ سيرة الرجل

هو رينه تاوفيل لانّاك مولود اقليم بريتانية في فرنسة. ولد في مدينة كِمپار في ١٧ شباط ١٧٨١ اصلهُ من اسرة اصاب اهلها بعض الشرف في خدمة وطنهم في وظائف الجنديّة والدوائر السياسية والحقوقيّة. كان ابوهُ منهمكاً بأشغال وظيفته بعيداً فلم يسعهُ ان يهتمّ بتربية ابنه. فتولّت امّهُ تدبيرهُ وارضعتهُ من صدرها حبّ الفضيلة مع حليبها إلّا انها كانت ضعيفة البنية سهزولة القوى فماتت قبل ان يبلغ الولد السادسة من عمره

فنشأ نحيفاً ضئيلاً لا ترجى له حياة طويلة

على انّ الوالد آلمي في اثنين من اعمامه ما لم يجدهُ في والدهِ فكان احدهما كاهناً يدعى ميشال من افاضل كهنة بريتانيـة وأوسعهم علماً. كان نال رتبة الملفنة في اللاهوت في جامعة باريس الشهيرة بالسّربون وعُهدت اليهِ رعاية النفوس في مدينة اليان (Eliant) . فدعا الولد اليهِ وعُني بتثقيفـهِ في الآداب والعلم وكان يدرّسهُ اللغتين اللاتينيَّة واليونانيَّة مع اصول المعارف الـدينيّة . وكان منزل الكاهن في موقع نزهٍ قريب من رياض بهجة فتحسّنت بجود هوائها المنعش صحّة ابن اخيهِ

على انّ اسقف الابرشيَّة بعد بضع سنوات استدعى الكاهن عمّهُ الى مرافقتهِ في اشغال الرعايا فقضى على رينه ان يخرج من اليان ويذهب الى عمهِ الآخر المدعو غليوم الذي كان يسكن مدينة نانت (Nantes) وهو احد اطبّائها النطاسيّين . فوصل الى المدينة اذ كانت الثورة الفرنسويَّة الكبرى هائجة تسفك في كل انحاء الدولة دماء الاساقفة والكهنة والاعيان مباشرةً بالملك لويس السادس عشر في باريس . وقد نجا عمّهُ من شرورها لحيادهِ عن كلّ سياسة ولزومهِ اعمال مهنتهِ في علاج المرضى في احد مستشفيات مدينة نانت مع ثبوتهِ على حفظ تعاليم دينهِ

فعاش الولد في دار عمهِ واخذ يسعى في خدمتهِ ويتخرّج على يدهِ في اشغال الطبابة . فوجد فيهِ الدكتور عمّهُ ذكاءً عظيماً واستعداداً لاتقان هذا الفنّ فكان في اوقات الفراغ يُعنى بامرهِ ويلقّنهُ مبادئ علمهِ . وكانت الحكومة الثوريَّة فتحت في نانت مدرسة للغات القديمة والآداب الوطنيَّة على المبادئ الشرعيَّة اللادينيَّة . فلم يرَ الغلام بُدّاً من التردّد اليها ليواصل دروسهُ السابقة . وفي نهايتها دخل كمساعد في مستشفى المدينة الى أن عاد السلام لفرنسة بعد الثورة بتملّك نابوليون الاوّل

فسافر لانّاك الى باريس ماشياً لقلّة ذات يدهِ ودخل مدرستها الطبيَّة فكان منذ وصولهِ متفوّقاً على كل الدارسين . فقضى هناك اربع سنوات كان فيها مثال الجدّ والمثابرة على احراز اسرار الطب والجراحة . وفي آخر السنة الثانية نال قصبة السبق في الطبابة والجراحة وأُعطي جائزتيها الشرفيَّتين . وفي آخر دروسهِ حاز رتبة الدكتوريَّة في ١٢ حزيران سنة ١٨٠٢ بعد أن قدّم أطروحةً اثنى عليها عمدةُ الاساقفة وكان موضوعها «الطبّ العمليّ في تعليم ابقراط»

انحصرت اعمال الدكتور لانّاك بعد خروجه من مدرسة باريس الطبية الى سنة وفاته في علاج مرضى العاصمة في مستشفيانها الكبرى اعني « مستشفى المحبة » نحو عشر سنوات ثم مستشفى برجون (Beaujon) سنة ١٨١٢ . وفي السنة ١٨١٤ دعي الى معالجة جرحى جيش نابوليون في حرب روسية . وتحوّل سنة ١٨١٦ الى مستشفى نيكر Necker . وفي ١٨٢٢ تعيّن كاستاذ طبي وجراحي في جامعة باريس الطبية (Collège de France) واستدعاه الملك شرل العاشر لخدمة بلاطه . وكان الدكتور لانّاك في كل هذه المناصب الشريفة لا يعرف الراحة فيستنفد كل قواه في خدمة المرضى والباذلين وطلبته الدارسين مع ضعف مزاجه . فكان اضطرّ في السنة ١٨٢٠ الى ان يعود الى وطنه ليستنشق هواءه المحيي ويروّح نفسه بالتروّض في رياض والصيد مع خدمة مواطنيه . ثمّ عاد الى باريس فتوالت عليه الاشغال كسابق حتى غلبت اخيرًا على حياته فمات في وطنه بريتانية في منتصف الحياة وعزّ الكهولة

وكان الدكتور لانّاك ذا طباع رائقة لين العريكة دمث الاخلاق رؤوفاً على الفقراء منزّهاً عن كلّ طمع في خدمة الباذلين صَبُورًا على مناقشات زملائه الذين سموا في حطّ مقامه في العلم وسامروه خفاً في كتاباتهم فلم يشأ ان يكيل لهم بكيلهم وفضّل الثبات على خطّته ريثما يتّضح الحقّ الذي ظهر في جانبه دون خصومه

وكان الدكتور لانّاك في معاملاته مع تلامذته يفرغ النفس والنفيس في سبيل خيرهم ونجاحهم وكان هو قدوتهم في النشاط والعمل والفضيلة لا يراعي فيهم غير الاستحقاق والسيرة الفاضلة

وكان لانّاك اقترن بالزواج بآنسة تشبهه بالفضل والفضيلة قضى معها اهنأ سنين حياته . وتبنّى اولاد عمه الدكتور بيانًا لشكره لمعروفه فعُني بكل امورهم حتى اصبحوا من افضل الرجال . ولم ينسَ وطنه كمبار فاوصى لها قبل وفاته بمكتبته الثمينة

٢ العلّامة النابغة

قد رأيت ان الدكتور لانّاك قد عُرف طول حياته كطبيب ذي معرفة واسعة حتى شغل المناصب التي لا تُعطى في باريس الّا لاكبر العلماء . لكنْ هذا لم يكن كافيًا ليجعلهُ موضوع اكرام معاصريه واعجاب اهل وطنه والاجانب . وانّما تفرّد

بطريقة من العلاج ابتكرها وفاق بها علماء زمانه ووضع لها افضل الادوات الجديرة بها

كان الاطبّاء في باريس يقتسمون في اواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر على مذهبين المذهب النظري والمذهب العملي فكان مشايعاً للاوّل الدكتور بروسّه (Broussais) فبنى عليه طريقتهُ العلاجيّة في مستشفى باريس المعروف بالسَّلپتريار (La Salpétrière) وألّف عدّة كتب في ما دعاهُ بالطبّ الفيسيولوجي. امّا المذهب الآخر العملي فكان متوقفاً على ماجريات الطبيعة وملاحظة تأثيراتها في المرضى. وكان المدافع عن هذا المذهب الدكتور كورڤيزار الشهير (Corvisart) في مستشفى المحبة. فكان اصحاب المذهبين في مناقشات ومعارضات دائمة

عرف الدكتور لانّاك بحسن نظرهِ وانتقاد فهمه ان المذهب الصحيح هو المذهب العملي وهذا ما دفعهُ الى وضع أُطروحتهِ عن ابقراط. ثم جرى بموجب هذا المذهب فنال في تطبيب المرضى نتائج باهرة ثبّتتهُ في رأيهِ فدافع عنهُ باللسان والقلم فعلّل ذلك جدالات عنيفة مع اصحاب المذهب النظري تجاوز فيها هؤلاء حدود الحقّ واللياقة فاوسعوهُ شتماً وسامروهُ خسفاً فاحتمل تحاملهم وثبت على رأيهِ

اكتشافات لانّاك

على انّ المذهب العملي كان محتاجاً لتشخيص الامراض الى ادوات دقيقة لم يُعرف منها سابقاً الّا المعاينة والجسّ وكلاهما لا يُطلعان على الامراض الباطنة كالقلب والرئة والمعدة وكان شاع بين ارباب الطب هذا المبدأ انّ اصعب الامراض تشخيصاً وعلاجاً امراض الرئة

فأخذ لانّاك يبحث عن آلة يستخدمها لذلك. واذ كان يوماً يفكّر في الامر في احدى الساحات اذ رأى صبيةً يلعبون هناك وكان في تلك الساحة اخشاب بنائيّة طويلة ضخمة فلحظ لانّاك ان الاولاد تقسّموا قسمين كل قسم على طرف الاخشاب. فكان فريق ينطق باحد الطرفين فيسمعهُ الفريق الآخر في الطرف الثاني دون صعوبة. فألهمهُ فعلهم ان يتخذ هو ايضاً آلة يحملها على صدور المرضى ويلصق اذنهُ عليها

لعلّه يميز حركاتها الباطنة . فلفّ اولًا دفترًا على شكل اسطواني وجعل طرفهُ على صدر فتاةٍ مسلولة وألصق اذنهُ على الطرف الآخر فأحسّ بحركات قلبها بنوعٍ جليّ وفي غاية الوضوح . فعرف انّ الله هداهُ الى الطريقة المثلى لتشخيص الامراض الصدريّة الباطنة . وللحال سعى باستحضار آلة خفيفة يسهل استعمالها فوضع المجسّة التي دعاها (Stéthoscope) اي نظّارة الصدر (اطلب صورتها) وبها فتح للعلم باباً جديداً . فألّف الدكتور لانئاك كتاباً لا يزال العلماء يرجعون اليهِ عنوانهُ التشخيص الوسيط (l'Auscultation médiate) . وقد اثبت الدكتور اكتشافهُ هذا بالتجربة امام مجلس العلماء فما كان منهم إلّا ان يذعنوا للحقيقة . وجعل الدكتور يتعمّق في نتائج اكتشافهِ فوقف بواسطة آلتهِ على اكتشافات غيرها كتمييز صوت الهواء في شُعَب الرئة وصدى صوت المتكلّم في صدر المخاطب جعلها كادّة للتدريس في مكتبهِ الطبي

الدكتور لانئاك

آلة التشخيص الوسيط

وما لبث ان شاع الاكتشاف الجديد في انحاء اوربّة واميركة فاخذ العلماء يتقاطرون الى باريس ليحضروا دروس الدكتور لانئاك فيتقنوا طريقتهُ التشخيصيّة وينشروها في بلادهم فصار لهُ بذلك شهرةٌ لم يبلغها بعدهُ إلّا پاستور الشهير . فكان ليلَ نهار محاطاً بالعلماء والمرضى الذين يأتونهُ ليتقصّوا خبر اكتشافاتهِ او يسألوه ان يشخّص امراضهم . وكان مع تشخيص الامراض الباطنة يسعى في ايجاد الادوية لعلاجها فنجح ايضاً في ذلك . ولهُ في هذه الاكتشافات وغيرها من المسائل الطبيّة ابحاثٌ ومقالات كان العلماء يتلقّونها بكل رغبة وثناء .

ولو أردنا نقل ما كتبهُ العلماء الأثبات عن لانّاك واكتشافاته الطبيّة لاتسع بنا المجال كفى بذكر احدهم الطبيب الكبير شوفّار (Chauffard) قال :

«انّ اجداد كثيرٍ من الناس ترول مع حياتهم او تتوارى بعد قليل . اما مجد لانّاك فلم ينقص شيء منهُ بعد وفاته وسوف يثبت طالما يشتغل الاطبّاء بفنّهم . . (الى ان قال) : لو عُرض على الطبّاء عصرنا ان يزاولوا اليوم مهنتهم دون التشخيص الوسيط الذي ابتدعهُ لانّاك لما رضي واحد منّا ان يرتزق بالطبابة . كان الطبّ قبلهُ ينقصهُ مشرُ ثين مَشْر السّمع فأرشدنا اليهِ لانّاك ومهّد لنا سبيلهُ . فصار للطبيب تلك آلات ثمينة لمعرفة الامراض ولم يكن الاطبّاء يعرفون قبلهُ سوى البصر والجسّ فاقامهم الآن حسّ السمع الذي لا بدّل عنها فائدة لتشخيص الامراض واذ ارقنا لانّاك عليهِ كان على شبه كرستوف كولمبوس مكتشفًا لعالم جديد فيحقّ لهُ ان يدعى كولمبوس الطبّ لولاهُ لبقيت عدّة امراض مجهولة فاكتشافاتهُ اخرجت الطبّ من مأزق عظيم»

٣ لانّاك رجل الدين والكاثوليكي العامل

عاش لانّاك في زمن شاع فيهِ التجرُّد عن الدين وفساد الطباع لما بثّتهُ الثورة الفرنسويّة الكبرى من روح الكفر والالحاد . لكن الدكتور لانّاك أبكمَ بسلوكهِ الزنادقة وكمَّ افواه المعترضين على الدين والذين يتشدّقون بقولهم ان العلم والدين على طرفي نقيض

سبق ان لانّاك رضع منذ نعومة اظفاره افاويق التقى في حجر امهِ ثمّ بجوار عمهِ الطبيب غليوم . فنست تلك الزريعة الصالحة الى ان أصيبت مدّة دروسهِ في مدارس نانت اللادينيّة بنسيم من ريحها الوبائي اذ كانت شاعت في المدينة مبادئ الكفر والزندقة بمساعي رجلين من زعماء الثورة فوشه (Fouché de Ronzerolles) والشقي الاثيم كاريار (Carrier) صاحب مجزرة نانت . على انّ تلك الزريعة لم تيبس مع ذبولها بفضل عمهِ الدكتور غليوم الذي لم يتزعزع في دينهِ نابذًا تطرُّف اشياع الثورة وغلاتها

احتلّ لانّاك باريس في السنة ١٨٠٠ فوجد فيها عثرات جديدة لبراعتهِ وايمانهِ إلّا انهُ لحسن حظهِ لقي كاهنًا من رجال الله وهو الناشئة الاب دِلْپوي (P. Del-puits) الذي ضمهُ الى اخويّة كان باشر بانشائها تتألف من افاضل رجال باريس واعيانها

كانوا يجتمعون في اوقاتٍ معيَّنة لتتميم بعض الفرائض الروحية ثمَّ يلقون المحاضرات العلميَّة والادبيَّة والدينيَّة للدفاع عن ايمانهم ثمَّ يتعاطون اعمال الرحمة كعيادة المرضى ومساعدة الفقراء. فكان هناك نخبة من مشاهير العصر علماً ونفوذاً كالدوق دي مونتمورنسي واوغسطين كوشي (A. Cauchy) بينهم عدَّة اطبَّاء نطاسيين كالدكتور فيزو (Fizeau) استاذ الباثولوجيَّة الطبيَّة والجراحي الكبير ميزونوف (Maisonneuve) والعلَّامة الطبيعي الشهير كروفيليه (Cruveilhier) والطبيب الذائع الصيت ريكاميه (Récamier)

فالى هذه الاخويَّة انتمى لانئاك بينما كان يدرس الطبَّ في باريس وثبت فيها طول زمن سكناه في عاصمة فرنسة. فكان لا يخجل من الاعلان بدينه وحرارة ايمانه. وكانت اوَّل محاضرةٍ القاها سنة ١٨٠٣ في نادي الجمعيَّة آيةَ السيد المسيح في انجيله: انا الطريق والحقّ والحياة. وفي تلك السنة كتب لوالده المنهمك في اشغال بلديَّة كميار رسالةً صرَّح له فيها عمَّا وجدهُ في تلك الاخويَّة من فرح القلب وراحة الضمير في ظلّ الدين قال:

«اني هنا في باريس غائص في دروس الطبّ وأعلم حقَّ العلم اني باجتهادي سأحصل على نجاح في امري لكنَّ مطامعي زهيدة يكفيني ان اكسب معاشي واخدم الهيئة الاجتماعية. وكل شيء سوى ذلك اعدُّهُ باطلاً. وقد تحققت بانَّ الغنى والمجد والفوز بكل رغائب الانسان لا يمكنها ان تشبع جوع القلب. ولذلك قد صرفتُ نظري الى الاله الذي وحدهُ يمكنهُ ان يُسعد الانسان فانَّ ولدك قد عاد بتمامهِ الى الدين والايمان الصحيح»

فهذا هو الايمان الذي سندهُ في جهاد حياتهِ ونشاطهُ في خدمة وطنهِ وقريبهِ

وكما ان الايمان الحيّ يظهرُ خاصَّةً بالاعمال فكان لانئاك يتفانى في خدمة المرضى والمبؤوسين الذين يقصدونهُ يستقبلهم ببشاشة ويخدمهم على طاقة امكانهِ. وكثيراً ما كانوا يحدقون بمستوصفهِ بعدد وافر لما بلغهم من اكتشافاتهِ الطبيَّة فما كان يردّ منهم احداً وكثيراً ما كان يؤازرهم بالنصائح المفيدة لحياتهم الادبية

وكان على مثال الكاثوليكيين المريقين في الدين يواظب على الاعمال التقويَّة والعبادات الروحية. فكان كالدكتور ريكاميه يتلو سبحة العذراء. وممَّا حدث لهُ

يوماً في سفره الاخير من باريس الى وطنه تدحبهُ قريتهُ الفاضلة أنهما كانا راكبين عربةً تنقلهما الى كيمبار . فلما وصلت العربة قريباً من نانت انقلبت عليهما ورمتهما في حفيرةٍ عميقة وسقط فوقهما كل متاع العربة . فلم ينجوا سالمين من هذه البلية الّا بعد شقّ النفس . ولمّا عادا الى ركوب العربة التفتَ الى قريته قائلاً : فلتتسم السلام الملائكي الذي كنّا بلغنا فيه الى «صلي لاجلنا نحن الخطأة» فأتمّاهُ قائمَيْن دون ان يبارح على وجههِ تأثر من ذاك الحادث المزعج

وفي وطنهِ كان لانثاك يحضر كلّ احد القداس الكبير بكل تخشع فيتقاطر الجمهور لرؤيتهِ اذ يبصرونهُ يتبع كلّ حركات الكاهن بزيد التقى ثم يمشي في طواف القربان مكشوف الرأس والسبحة في يدهِ وعلى وجههِ كلّ امارات العبادة فيشيرون اليهِ بالبنان قائلين : «هذا امير العلم في زماننا فمن يستطيع ان يعزوهُ في ايمانهِ الى الجهل»

وكان اذا خدم المرضى في المستشفيات يسعى بتلطيف اوجاعهم بالادوية الروحيّة كما كان يُسعفهم بعلاجهِ الطبي ويستقدم الكهنة ليزوّدوهم بالاسرار . وكان اذا لقي بين المرضى رجالاً من بريتانية وطنهِ لا يعرفون غير لغتهم البريتانيّة يتلو لهم الصلوات في لغتهم ويعدّهم للحضور امام الله . وكان لانثاك يحكم تلك اللغة ويُسَرّ بدرس آدابها وآثارها

ولمّا احسّ بقرب وقوع اجلهِ استدعى الكاهن وكان من اصدقائهِ فطلب منهُ ان يأتيهُ بالمشحة الاخيرة ويزوّدهُ بالقربان الاقدس . فقبل تلك الاسرار بكل هدوء وطمأنينة لم يتأسف على وفاتهِ قبل سنّ الشيخوخة . فمات بعد اقرائهِ الوداع على امرأتهِ ونزعهِ من يدهِ خاتمَي الزواج لئلا يزيد اسفها عليهِ بنزعهما من يدهِ بعد موتهِ فدُفن بكل اكرام في مقبرة بلدة باراه (Ploaré) المجاورة لكيمبار ترى اليوم فوق ضريحهِ صليباً من الرخام كُتب عليهِ ما تعريبهُ :

« هاهنا يرقد جسد زينه تنوفيل مياسنت لانثاك طبيبُ جلالة الملكة مادام دوقة دي بري واستاذ الطبّ في مدرسة فرنسة الملكيّة واستاذ مستوصف باريس الطبي وعضو جمعيّة الاطبّاء الملكيّة وحائز وسام جوقة الشرف من رتبة فارس . كان مولدهُ في كيمبار في ١٢ شباط سنة ١٧٨١ وتوفي في كلارنوارنيك في ١٣ آب سنة ١٨٢٦ . صلّوا لاجلهِ »

وقد اقام له مواطنوه تمثالاً بازاء كنيسة كبار الكاتدرائية سنة ١٨٦٨ . وسبقت اكادمية باريس الطبيَّة فنصبت تمثالهُ النصفي على نفقتها في اكبر معاهدهـا واطلقت بلديَّة باريس اسمهُ على احد مستشفياتها في شارع سيڤر وهو المستشفى الذي انشأهُ الكردينال لاروشفوكو . وكذلك سمَّت جامعة باريس احدَ معاهدها باسمهِ الكريم . وألَّف الكاثوليك الفرنسويُّون جمعيَّة طبيَّة خيريَّة اشتهرت باسم لانثاك . ونُصبت صورتهُ في سائر الجماعات الطبيَّة الكاثوليكيَّة كمثالها الحيّ

فبمناسبة تذكار هذا الرجل العظيم ندعو اطباء هذه البلاد لاسيما المتخرّجين في مكتبنا الطبي الى اتخاذه كقدوة لهم في مزاولة فنهم بكل اخلاص ونشاط فيسعون مثله الى خدمة الابدان والارواح معاً

الآداب العربيَّة

في الربع الاول من القرن العشرين

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الباب الثاني

في المستشرقين المتوفين في هذه الحقبة الثالثة

الفرنسويون

فقدت رسالتنا في الاسكندريَّة في ١٤ شباط ١٩١٩ احد مرسليهـا المنقطعين للدروس الشرقيَّة والآثار المصريَّة الاب ﴿ جول فيڤر ﴾ (J. Faivre) درس تاريخ الاسكندريَّة ونشرهُ في دائرة العلوم التاريخيَّة الكنسيَّة (Dict. d'Hist. Ecclésiastique) ولهُ كتاب في آثار كانوب (ابو قير) وخرائبهـا راجع المشرق ٢٤ [١٩٢٦]: ٨١٩) ولهُ منشورات عن مصر وآثارها النصرانيَّة